

اثر دولة المرابطين في الأندلس (٤٧٩-٥٤١ هـ / ١٠٨٦-١١٤٦ م)

بعد سقوط مدينة طليطلة بيد الإسبان التي أحدثت صدمة لدى المسلمين داخل الأندلس وخارجها والخشية من المرحلة القادمة لأنهم كانوا يشعرون بأن الخطر قادم والزوال من أرض الأندلس محتوم نتيجة لتزايد قوى الممالك الإسبانية وضعف المسلمين فيها.

جهز الفونسو السادس جيشاً كبيراً بدعم من أوروبا باتجاه مدينة إشبيلية فأعلنت الدعوات من قبل الفقهاء والوطنيين للوحدة كشخصية أبي الوليد الباجي الذي كان يرتحل بين مدن الطوائف وأقنع ملك إشبيلية المعتمد بن عباد بدعوة المرابطين والاستعانة بهم لمواجهة الخطر الإسباني فقال المعتمد بن عباد عبارته المشهورة : "رعي الجمال خير من رعي الخنازير" فكان التخوف من بقاء المرابطين في الأندلس وعدم الخروج منها لكنه على يقين بحجم الخسارة إذا ما سقطت إشبيلية بيد الإسبان . علم الفونسو السادس باستعانة الأندلسيين بالمرابطين فأرسل رسالة لزعيم المرابطين (يوسف بن تاشفين) يحذره من التدخل في الأندلس فردّ عليه بأن كتب على ظهر تلك الرسالة : "الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه أذنك" .

ففي عام (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) عبر أمير المرابطين بجيشه من مدينة سبته إلى الجزيرة الخضراء التي أصبحت قاعدة العمليات العسكرية بعد أن أرسل وكلاءه لشراء السلاح والتحضير لاستقبالهم متوجهين إلى مدينة إشبيلية وانضم إليهم من الأندلسيين ثم توجهوا نحو مدينة (بطلوس) للقاء العدو، وكان الفونسو السادس في ذلك الوقت يحاصر سرقسطة الذي فك الحصار عنها حينما علم بقدوم المرابطين والتقى الطرفان في فحص (الزلاقة) وقبل حدوث المعركة تبادل الطرفان الرسائل لتحديد موعد ليوم المعركة فكان رأي الفونسو السادس أن يكون يوم الاثنين موعد القتال لأن الخميس والجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود والأحد عيد المسيحيين فأدرك يوسف بن تاشفين بأن هذه خدعة لمفاجئة المسلمين يوم الجمعة وهذا ما حدث فعلاً فاستعد المسلمون لها استعداداً كاملاً، فكان جيش المسلمين يتكون من ثلاث فرق مجموعهم ثلاثون ألف جندي، أول مجموعة (١٥,٠٠٠) يرأسها المعتمد بن عباد وبعده مجموعة (٤,٠٠٠) جندياً من أمهر الرماة والمجموعة الثالثة والأخيرة (١١,٠٠٠) في المؤخرة يتزعمها يوسف بن تاشفين الذي أوصاهم بالصبر فكانت الخطة أن ينهك العدو بالمجموعة الأولى ويدخل عليهم لرفع الروح المعنوية وقد أفاد من الجمال لأن الخيول تفزع من الجمال، فمجموعة هاجمت قلب جيش العدو والمجموعة التفت التفافاً طويلاً حول الجيش لتضرم النار في مؤخرته، فاشتبك الطرفان وانتصر المسلمون واستشهد منهم علماء وخسر الفونسو السادس المعركة بعد أن جرح وفر من معه وسميت بمعركة الزلاقة لأنها وقعت على هضبة عالية وانزلاق الحصون من عليها بسبب كثرة الدماء التي أريقَت فيها والتي أعيدت بها وحدة بلاد المغرب والأندلس .

بعد الانتهاء من معركة الزلاقة بقيت حاميات مرابطية بالأندلس وقام يوسف بن تاشفين بنصح ملوك الطوائف بالاتفاق والتوحيد وإنهاء الانقسامات والنزاعات والخلافات السياسية وتوحيد الأندلس نحو مواجهة الخطر المشترك وهي الممالك الإسبانية وما تقوم بها من حركة الاسترداد، بعدها اضطر إلى العودة للمغرب لوقوع أحداث داخلية .

وفي عام (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) توفي يوسف بن تاشفين وتولى ابنه (علي بن يوسف بن تاشفين) الحكم فأكمل التحركات العسكرية وتصفية ملوك الطوائف في الأندلس بعد عبوره إليها ومقاتلة الممالك الإسبانية المتمثلة بمملكة قشتالة وقد تحققت انتصارات وهزائم في معارك عديدة مثل (معركة أقليمش) التي حدثت في عام (٥٠١ هـ / ١١٠٨ م) وهي مدينة شرق طليطلة فكان المرابطون يقودون المعركة التي انتصروا فيها ضد جيش الفونسو السادس بقيادة ابنه وولي العهد الصغير السن ومعاونة أمرائه السبعة الذين فروا من المعركة ومقتل ولي العهد وعدد من المسلمين رغم انتصار المسلمين فيها وأطلق على المعركة اسم معركة الأمراء السبعة وبهذا الانتصار تحققت الثبات في المناطق الشرقية والوسطى من الأندلس . وفي عام (٥١١ هـ / ١١١٧ م) تمكن المرابطون بقيادة علي بن يوسف بن تاشفين من الاستحواذ وإخضاع مدينة (قلمرية) عاصمة البرتغال في غرب الأندلس .

لكن بظهور الموحدين في الجنوب الغربي من المغرب واضطراب الأحوال فيها أدى إلى إضعاف المرابطين لانشغالهم بإخماد تلك القوة الجديدة في المغرب فاستغلت الممالك الإسبانية هذه المرحلة الانتقالية بهجمات متلاحقة على المرابطين في الأندلس

واسترداد العديد من الأراضي ومما زاد الأمور سوءاً إعلان رؤساء الأندلس ثورتهم على المرابطين وتأييدهم للموحدين وبذلك سقطت دولة المرابطين في المغرب والأندلس عام (١١٤٥/٥٤٠ م) .

المصادر : الحموي، معجم البلدان، بلا طبعة، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.